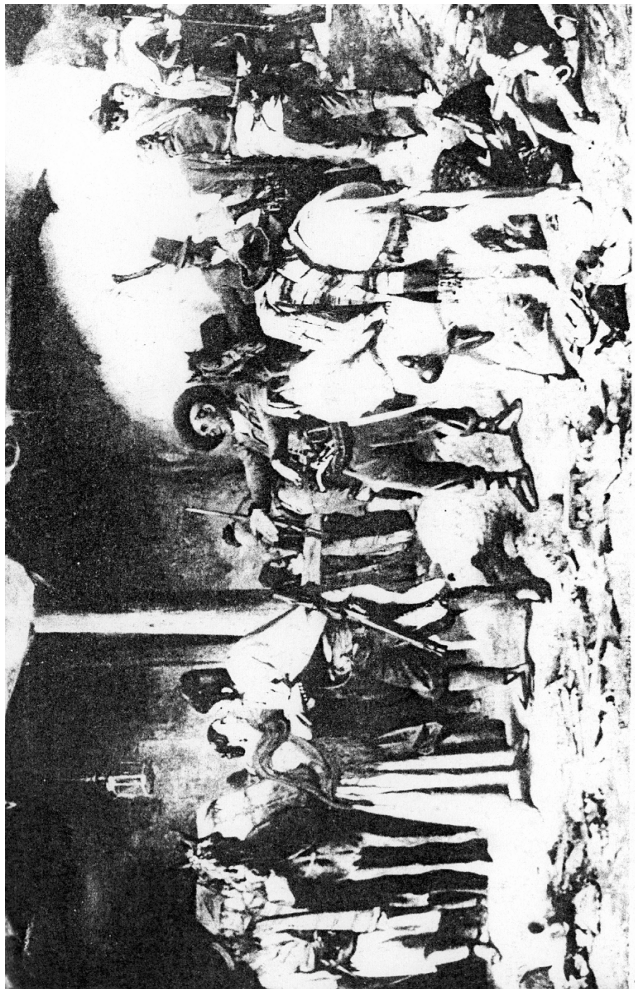

رحيل المهربين، لوحة وُرْمز ١٨٠٤

قرطبية غجرية يصعب عليه الحكم الا اذا تمثل شعر رقبة اقذر البغال واضخمها جسماً! وفي بعض مدن اندلوسيا الكبيرة يبذل بعض الغجريات قليل عناية بمظهرهن. وهن يؤجرن لعرض الرقصات الشبيهة بتلك التي يمنعها القانون في الحفلات العامة الراقصة.

ان مستر (بورو) الانكليزي مؤلف خير كتابين عن الغجر في اسبانيا، والذي حاول التبشير بالمسيحية فيهم بوصفه عضواً في جمعية التبشير بالكتاب المقدس، اشار الى انه لم توجد غجرية واحدة تزوجت او احبت رجلاً ليس من بني جنسها، وأراه يبالغ كثيراً في مدح عفافهن بلا تحفظ. فاغلبيتهن ممن يصدق عليه قول الشاعر الروماني (أوڤيد)[٥٧] اثناء تعريضه بالحالة اليائسة التي تجد الفتاة نفسها فيها: انها عفيفة طاهرة، لانها لاتجد من يريدها! والجميلات منهن ككل الاسبانيات الفاتنات، يتعسفن في اختيار عشاقهن. وعلى العشاق ان يستميلوهنَّ ويسترضوهنَّ حتى ينالوهُنّ ببذل اعظم الجهود. ويذكر مستر (بورو) مثالاً عن عفافهن. وهذا المثال يقوم دليلاً على عفافه او سذاجته بالاحرى. يقول مستر (بورو) ما خلاصته ان احد الرجال المستهترين الغرانيق، يعرفه هو، اعطى بعض القطع الذهبية لاحدى الغجريات! اني رويت هذا الكلام لاندلوسي فاجاب: «اعطاء نقود ذهبية لغجرية أمر لايصدقه العقل، هذا العطاء يشبه اعطاء احقر الخادمات مليونا او مليونين!»

٥٧- ovid: يوپليوس اوڤيديوس (٤٣ ق.م- ١٨م) شاعر لاتيني نال شهرة شعبية في عصره، نفاه اغسطس قيصر الى البحر الاسود وتوفي هناك.

مع ذلك كله، فالغجريات يخلصن لازواجهن اخلاصاً لا مثال له. وليس ثم عذاب او صعاب لاتخوضها الغجرية لانقاذ زوجها ومعونته عند وقوعه في مأزق. ومن الاسماء التي يتسمى بها الغجر «رومي Romi ومعناها زوج» وهذا يقوم دليلاً على مدى تقديس معشر الغجر لرباط الزوجية.

ويمكننا القول على العموم، بان الميزة العظمى التي ينفردون بها هي (الوطنية)، ان جاز لنا اطلاق هذه الصفة على الاخلاص المتبادل بين افراد القبيلة الواحدة. ثم الاسراع الى النصرة وتكتم السر في امورهم الخاصة التي لايصح فضحها امام الاغراب، هذه الاخلاق موجودة ايضاً في كل الدوائر السرية والجمعيات الخارجة على القانون.

زرت قبل بضعة اشهر احد مضارب الغجر في جبال «القوج» الفرنسية فرأيت عجوزاً في احدى الخيم كانت زعيمة الجماعة. وكان في خيمتها غجري اجنبي لايمت الى عشيرتها بصلة قرابة هو مصاب بداء عياء والموت منه قاب قوسين. كان قد خرج من المستشفى الذي لقي فيه عناية كبيرة كي يموت بين بني جنسه! وها قد مر عليه ثلاثة عشر اسبوعاً في ضيافة العجوز، تكرم مثواه وتعني به اكثر من ابناء العشيرة واصهارها الذين يعيشون في الخيمة نفسها. وكانوا قد مهدوا له فراشاً من العشب اليابس اللين، ووضعوا فوقه ملاءة نظيفة، وبقي افراد العشيرة الاحد عشر ينامون على لوح خشبي عرضه ثلاث اقدام! تلك هي

الغجر في ترحالهم من ريشة الفريد دعودنك ١٨٦٩

اخلاقهم الرفيعة في اكرام الضيف! كانت العجوز بدرجة من الحدب والاخلاص لنزيلها المريض ان قالت بيأس واستسلام وهي واقفة امامه:

- singo singo homti hi mulo اي سيموت عما قريب ولا حيلة لنا به.

ذلك لان حياة هؤلاء الناس حافلة بالبؤس والاخطار حتى ان حديث الموت امامهم لايفزعهم كأنه حديث عادي.

هنالك ظاهرة اخرى فيهم هي عدم احتفالهم بامور الدين لا لأنهم من فريق المرتابين او ممن ينكرون وجود الله فهم ابعد الناس عن ذلك ودين البلد الذين هم فيه هو دينهم. على ان الخرافات والاوهام التي تسد مسد الدين عند الشعوب البربرية، لا اثر لها عندهم. وكل ضروب الدجل والشعوذة التي لايصدقها البشر السوي، لايؤمنون بها ايضاً. غير اني وجدتهم يخافون خوفاً شديداً من لمس جثة الميت. وتكاد لا تجد احداً يرضى ان يحمل جنازة الى مدفنها.

قلت سابقاً ان اغلب نساء الغجر هن عرافات وقارئات كف بارعات. ولكن اعظم مصدر لربحهن هو بيع (طلسم الحب) وهم يعتزون ايضاً بساق الضفدعة كتميمة تحفظ اخلاص القلب القُلّب[٥٨] ولديهم مسحوق حجري لو وضعت امامه حديداً

٥٨- تقرأ بضم القاف وتشديد اللام، ومعناها (السريع التغيير).

لانجذب اليه، واذا صَرّه المرء في جيبه احبه من كرهه. فاذا لم تفد تلك التمائم شيئاً، عمدوا الى بعض الادعية والصلوات الى الشيطان ليخف الى نجدتهم في سحرهم هذا. وقد قصت علي سيدة اسبانية قبل عام واحد القصة التالية: قالت انها كانت تسير مرة في طريق الكالا alkala وهي شديدة الحزن كاسفة البال، واذا بغجرية متربعة على الارض تناديها قائلة:

- ايتها السيدة الجميلة، ان حبيبك قد خانك (وكان ذلك صحيحاً) اتريدين ان يعود اليك؟

واترك لك المجال لتتصور مقدار السرور الذي شمل السيدة لدن سمعت النبؤة. لقد استطاعت تلك الغجرية ان تتكهن باسرع من لمح البصر وتكشف اعمق اسرارها. فاي ثقة تضاهي الثقة التي سنودعها اياها السيدة؟ ولما كان يتعذر على الغجريات القيام بسحرهن في شوارع (مدريد) فقد اتفقت مع السيدة على موعد، ولما اجتمعتا قالت الغجرية: «من السهل جداً اعادة حبيبك اليك. أعندك منديل او ملاءة اهداها لك؟».

فناولتها السيدة قطعة حرير، فقالت الغجرية:

- والان ضعي قرشا في احدى زواياها وخيطيه بخيط قرمزي وضعي قرشاً اخر في آخر الزاوية الاخرى وخيطيه وضعي قطعة اصغر في الزاوية وفلساً في الرابعة. وفي الوسط قطعة ذهبية، والاحسن ان تضعي (اثنتين!)، ثم اعطني المنديل لاضعه في مقبرة (مدريد) عند انتصاف الليل: وان

شئت جئت معي. وهناك ساريك شيئاً من عمل الشيطان ولتثقي ان حبيبك سيعود اليك بعد ذلك.

على ان الغجرية ذهبت الى المقبرة وحدها فقد كانت السيدة تخاف الشياطين واترك تفكيرك ليحكم فيما اذا استعادت السيدة منديلها وحبيبها ام ضاع منها الكل؟

وهم مع كراهية اهل البلد لهم والاحتقار المنصب عليهم، يتمتعون بمكانة وبعض احترام عند سفلة القوم ورعاعهم، وانهم ليفخرون بهذه المكانة. ويرون انفسهم شعباً راسخ الذكاء ويسخرون بالشعوب التي ترعاهم وتضيفهم سخر المغرور المختال. قالت لي احدى غجريات جبال (القوج):

- ان سكان المدن بدرجة من السذاجة والغباء واضحتين حتى اني لا اكلف نفسي عناء وصفهما. فقبل ايام، نادتني قروية وهي من قارعة الطريق فدخلت، وكانت النار مضطرمة في موقدها، فسألتني: «الا تقرأين كفي؟» وقبل ان اقوم بهذا طلبت منها قطعة لحم الخنزير أتبلغ بها فاجابتني الى ذلك، واخذت وانا آكل اللحم اقول لها بلغتي: «انت غبية ولدت غبية وستموتين غبية» ولما دنوت من الباب قلت لها بالالمانية الفصحى: «ان شئت ان لا يخرج من موقدك دخان، فلا عليك الا ان تبقيه خامداً» قلت هذا واسرعت هاربة باسرع مما تحملني قدماي!.

ان تاريخ هؤلاء الغجر اشبه بمعضلة يتعذر حلها. وقد ثبت

لدينا ان قوافلهم الاولى كانت ضئيلة جداً، شوهدت في شرقي اوربا في اوائل القرن الخامس عشر. الا اننا لانستطيع الجزم بمنبتهم الاصلي، او بالدافع الى هجرتهم من موطنهم الى اوربا، واغرب ما في الامر اننا لايسعنا الا الاحتيار في تعليل تكاثرهم السريع بمدة وجيزة وبصورة عظيمة وفي بلاد مختلفة ومتباعدة. والغجر انفسهم يقرون بانهم فقدوا كل ما يصلهم بالماضي، وانهم يجهلون اصلهم. ولما كان اغلبهم يكثر من التحدث عن ارض مصر، فهم يميلون الى الاعتقاد بان وطنهم الاول هو مصر، وتبنوا هذه الخرافة كحقيقة واخذوا يرددونها منذ زمن بعيد. ان اكثرية الباحثين يرون ان اصلهم (هندي) اذ يبدو ان ثم جذوراً لغوية عميقة تصل بين لغتهم (الرومّاني Rommani) وبين سائر اللغات التي خرجت من السنسكريتية ويمكن القول ان تجوالهم الدائم في مختلف الاقطار ادخل على لسانهم كثيراً من الكلمات الاجنبية، فنجد في لغتهم كثيراً من التعابير اليونانية. ولايمكن الاحاطة بلهجاتهم المحلية فهي عديدة بقدر جماعاتهم المبثوثة في الاقطار كافة. وهم يتقنون لغة كل بلد نزلوا فيه ويتخاطبونها باسهل مما يتخاطبون لغتهم ولا يستعملون لغتهم الخاصة الا عندما يريدون التحدث بحرية فيما بينهم. في حالة ما لو كان لديهم سر لا يريدون ان يقف عليه سكان البلاد.

وبمقارنة لهجتين غجريتين لفريقين احدهما يسكن المانيا، والاخر اسبانيا، نجد تشابها في تعابير كثيرة من كلتا اللهجتين،

مع انهما متباعدتان احداهما عن الاخرى قروناً عدة. ومرد ذلك هو ان لغة الاصل لكلتا اللهجتين طرأ عليها تغيير عظيم من جراء احتكاكها بلغة تفوقها رقياً اذ لم يكن لمعشر الغجر مندوحة من التخاطب بتلك اللغات الراقية. وهكذا دخلت عناصر جديدة الى لغتهم، فاثرت الالمانية والاسبانية كل واحدة من جهتها على لغة الغجر حتى تعذر على الغجري ساكن (الغابة السوداء) بالمانيا ان ليتفاهم مع احد بني جنسه الساكن في اندلوسيا. انهما يعرفان حق المعرفة بانهما يتحدثان بلغتهما الخاصة لكنهما لا يتفاهمان مطلقاً.

ان مدلول الكلمات ذات الاستعمال الشائع الكثير هو واحد في سائر اللهجات الغجرية ومنها اسماء (الماء و الخبز و اللحم والملح). اما اسماء الاعداد فهي هي تقريباً ويغلب على ظني ان اللهجة الالمانية انقى واقرب الى الاصل من اللهجة الاندلوسية لانها ظلت محتفظة بكثير من الصيغ النحوية الاصلية، على حين تبنى غجر اسبانيا اللهجة (القشتالية) ومع ذلك يشذ بعض كلمات، حتى لكأنها تقيم الدليل على الرابطة اللغوية المشتركة. فان تراكيب اللهجة الالمانية لفعل الامر (وهو عندهم اصل صيغ الافعال) تتم باضافة (ium) اليه. والافعال في القواعد الاسبانية تصرف جميعها من التصريف الاولي على نهج الافعال القشتالية فمن مصادر كلمة (جامار Jamar) ومعناها «الاكل» تصاغ كلمة (جامي ,jami) حسب القاعدة بمعنى «اكلت» ومن

كلمة (ليلاز lilar) وتعني «الاخذ» يقال ,lille بمعنى «اخذت» ومع ذلك فبعض كهولهم يقول بصورة شاذة (جايون، ليلون) ولم يصل الى علمي افعال اخرى احتفظت بهذه الصيغة القديمة.

باستعراضي هذا لمعلوماتي الضئيلة بلغة (الروماني Rom-mani) ارى ان اثبت هنا بعض الكلمات العامية الفرنسية التي اخذها لصوصنا وعيارونا من الغجر. فشقاة باريس وعصاباتها تعلم ان كلمة (شوران Chorin)، تعني «سكين» وهي كلمة غجرية خالصة وكلمة (چوري Tchouri) من الكلمات المشتركة بين كل لهجات الغجر. ومسيو فيدوك[٥٩] يسمي الحصان (گريس gris) وهي كلمة غجرية. اضف الى ذلك كلمة (رومانيشيل rommanichel) (واللهجة الباريسية العامة تطلقها اسما للغجر) انما هي تحريف للكلمة المزجية (روماني تشيفي) التي تعني (فتيان الغجر) والكلمة التي اعتز بها هي (فريموسي frimoussi) ومعناها «وجه»، هي الكلمة التي يستعملها كل الطلاب او انهم كانوا يستعملونها في زماني. واذكر ان (ادون) ايضاً في معجمه العجيب كان في ١٦٤٠ يكتب الكلمة السالفة هكذا (فيرليموسي firlimouse) وعليه فان كلمتي (فيرلا firla وفيلو filo) تعني «الوجه» بلغة الغجر

٥٩- لص فرنسي مشهور ظهر في النصف الاول من القرن التاسع عشر، وثم تاب اخيراً وانضوى الى الشرطة الفرنسية واعطي منصب كبير محققين وصار يطارد اللصوص، وقد كتبت فيه قصص بوليسية كثيرة.